التوجيه المهنى بين الأسرة والمدرسة

بقلم زكريا ابراهيم
مدرس بمدرسة السويس الثانوية

قبل أن نتحدث عن الدور الذى يجب أن تضطلع به كل من الأسرة والمدرسة فى التوجيه المهنى ، ينبغى لنا أولا أن نحدد مهمة التوجيه المهنى بصفة عامة — . وهنا نجد أن الرسالة التى يقوم بها التوجيه المهنى هى مما يدخل فى نطاق الجهود السيكولوجية التى تبذل من أجل إعداد المراهق للحياة المكتملة الناضجة . فالتوجيه المهنى هو من المباحث السيكولوجية الحديثة التى يراد بها تهيئة المراهق للحياة العملية ، حتى يستطيع أن يقوم بدوره فى المجتمع الذى سوف يخرج إليه . ولكن كثيراً من الناس قد اختلط عليهم التوجيه المهنى بالاختيار الفنى ، فوقع فى ظنهم أن التوجيه المهنى هو مجرد اختبار يجرى فى المعامل ، لامتحان قوى الفرد عن طريق طائفة من الأجهزة والآلات . ومن هنا فقد نشأت حملة لا مبرر لها على التوجيه المهنى ، بدعوى أنه محاولة جريئة لقياس الطبيعة الإنسانية المرنة قياساً آلياً عقيماً . وما دامت الشخصية الإنسانية غير قابلة للتحدد ، فإن التوجيه المهنى لن يتوصل إلى أية نتيجة علمية — فيما يرى خصومه — وبالتالى فإننا لن نستطيع أن نحدد أى طابع إنسانى تحديداً علمياً محكماً .

بيد أن التوجيه المهنى لا يرمى إلى هذا التحديد الآلى الذى يقصد إليه من وراء الاختيار الفنى ، فمن الخطأ أن نخلط بين التوجيه والاختيار ، على الرغم مما للاختبارات من أهمية فى التوجيه المهنى . ولئن كان التوجيه المهني قد ظهر على أثر الجهود الكبيرة التى بذلها رجال الصناعة وأصحاب الحرف فى البلاد الأجنبية ، من أجل اختبار العمال قبل إلحاقهم بأى عمل ؛ فإن من الواجب أن نفرق بين الاختيار الفنى الذى يرمى إلى التصنيف والتنحية ، وبين التوجيه المهنى الذى يرمى إلى الإرشاد والهداية .

والواقع أن أصحاب الأعمال قد فطنوا منذ عهد قريب ، إلى أن كثيراً من الأعمال الخاصة تتطلب من الفرد استعداداً خاصاً ، فمن ثم اتجهوا إلى إجراء امتحانات

سيكولوجية واختبارات فنيه لسائر العمال ، قبل أن يعهدوا لأى واحد منهم بأى عمل كائناً ما كان . ومن هنا فقد ظهرت مناهج مختلفة ، وأقيسة متعددة ، أريد بها تصنيف العمال ، ووضع سلم خاص للقيم الفنية ، حتى يقدر استعداد كل فرد تقديراً دقيقاً محكماً . وهكذا نشأت فى معظم البلاد الأجنبية معامل خاصة ، سميت باسم معامل علم النفس الصناعى ، وأصبح لكل صناعة معينة معامل خاصة . أما الأجهزة التى درج استعمالها فى هذه المعامل ، فهى عبارة عن آلات خاصة تتطلب من الفرد أعمالا معينة ، وحركات نوعية ، يمكن عن طريقها قياس أرجاعه الذهنية والحسية والحركية (بل والوجدانية أحياناً) ، مما ينبغى توفره فى العمل الذى سيعهد به إلى الفرد .

ولكن هذا « الاختيار الفنى » الذى يقوم على اختبارات دقيقة وأقيسة محكمة ، قد أصبح يرمى إلى تحديد استعدادات الفرد تحديداً آلياً ، فلم يلبث الطابع الآلى أن غلب عليه ، حتى صار مجرد فحص ميكانيكى لا أثر فيه للدراسة السيكولوجية أو البحث الإنسانى . ومن هنا فإن عمل « الاختيار » قد أصبح منحصراً فى دائرة الميكانيكا والقياس ، ولم يعد يتجاوز نطاق التصنيف الآلى والتقدير الكمى . ولعل هذه النزعة الآلية هى التى عملت على نشأة « التوجيه المهنى » ، لأن علماء النفس قد حاولوا أن يتدبروا ما فى « الاختيار » selection من نقائص ، فاتجهوا إلى بحث جديد تغلب عليه النزعة الإنسانية .

والواقع أنه ليس يكفى أن نصنف الأفراد وفقاً لاستعداداتهم ، فنعهد إلى كل فرد بما هو ميسر له ؛ وإنما يجب أيضاً أن نعمل على توجيه كل فرد ، حتى نجنبه سائر الأخطاء التى قد يتعرض لها ، وكافة الصعوبات التى قد يصطدم بها . ومعنى هذا أن من واجبنا قبل أن « نصنف » الأفراد ، أن « نوجههم » ، وهذا التوجيه هو ما يجب علينا الآن أن نتدبره ، حتى نعرف الدور الذى يقوم به ، والغاية التى يرمى إليها .

وهنا نجد أن التوجيه المهنى هو أولا وقبل كل شىء دراسة سيكولوجية علمية ، تنظر إلى الفرد نظرة إنسانية شاملة ، فتحاول أن تخدم كل فرد ، بالنظر إلى صالحه الخاص وصالح الجماعة معاً . وإذا كان التوجيه المهنى دراسة علمية بمعنى الكلمة ، فذلك لأنه يقوم على أساس علمى ، يتمثل فى دراسة الفوارق الفردية ، وقياس الاختلافات النوعية . — وهنا يكون علينا أن نهيب بالمعمل ، من أجل القيام

باختبارات سيكولوجية ، وأقيسة فنية . ولكن من واجبنا بعد ذلك ، أن نشرع فى استخلاص النتائج من هذه الاختبارات المتعددة التى قمنا بها فى المعمل السيكولوجى . وهكذا يخرج التوجيه المهنى من الدائرة العلمية ، لكى يتجه إلى الدائرة العملية ، فيقف وجهاً لوجه أمام الفرد ، والمجتمع ، والحياة . وهنا لا يكون على التوجيه المهنى أن يتخلى عن وجهة نظره العلمية ، بل يكون عليه أن يحشد سائر العناصر التى اهتدى إليها من خلال الفحص العلمى ، لكى يلائم بينها وبين الواقع ، فكيف العلم مع العمل . وفى وسط هذا التيه العجيب الذى تختلط فيه ميول الفرد واستعداداته من ناحية ، وحالة المجتمع الاقتصادية من ناحية أخرى ، يجىء التوجيه المهنى فيقوم بدوره الإيقاعى من حيث هو « مرشد » أو موجه . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن مهمة التوجيه المهنى إجتماعية فى صميمها ، وذلك لأنها بمثابة تنظيم اجتماعى لا أثر فيه للنزعة الآلية التى تغلب على الاختيار الفنى .

وإذن فإن الجهد الذى يقوم به التوجيه المهنى « اجتماعى » محض ، لأنه لا يرمى إلى التصنيف أو العزل ، بل يرمى إلى الإرشاد والهدى . وليس يكفى أن نوجه المراهق نحو عمل نافع منتج ، به نضمن له تكويناً فنياً خاصاً ، وإنما يجب أيضاً أن يكون الطريق الذى نرسمه أمامه ، طريقاً محبباً إلى نفسه ، مشبعاً لميوله ورغائبه . ومعنى هذا أن التوجيه المهنى لا يرمى إلى صالح الإنتاج (كأن الفرد مجرد وسيلة) وإنما هو يرمى إلى صالح الفرد فى ذاته ، من حيث أنه لا بد لنا من أن ندخل فى حسابنا سائر ميوله وأذواقه ورغائبه .

ولكن التوجيه المهنى لا يقيم وزناً كبيراً لرغبات الفرد وميوله فحسب ، وإنما هو يعمل حساباً كبيراً لحالة المجتمع ومطالبه أيضاً . فالغاية التى يرمى إليها مزدوجة : لأنه يريد أن يوجه الفرد توجيهاً عادلا من ناحية ، ويريد أن ينظم المجتمع تنظيماً صالحاً من ناحية أخرى . ومعنى هذا أن التوجيه المهنى يبغى « العدالة » بالنسبة إلى الفرد ، و « النظام » بالنسبة إلى المجتمع . وهو من هذه الناحية أقرب ما يكون إلى « الأعمال الاجتماعية » التى لا بد فيها من إقامة التوازن أو الانسجام بين الفرد من ناحية ، والمجتمع من ناحية أخرى . ومن هنا فإن فى وسعنا أن ندخله فى نطاق « الخدمات الاجتماعية » التى تنشد صالح الفرد والجماعة معاً .

وما دام التوجيه المهنى ليس مجرد بحث علمى ينحصر فى دائرة المعامل الصناعية ، فإن من واجبنا أن نعرف كيف يمكن أن تساهم الأسرة والمدرسة فى الاضطلاع

بمهمته . وهنا نلاحظ أن من واجب الوالدين ، والمربين ، والأساتذة ، والأطباء ، ورجال الأعمال ، أن يتضافروا جميعاً فى القيام بمهمة التوجيه المهنى . وليس من شك فى أن تبعة الأسرة والمدرسة فى هذا التوجيه أعظم بكثير من تبعة أية هيئة أخرى ، ولكن من الواجب أن تحشد سائر الكفايات لخدمة المجتمع . وإذا كان التوجيه المهنى مشكلة اجتماعية وخلقية معاً ، فلعل من واجب الحكومة أيضاً أن تساهم فى حل هذه المشكلة .

وإنه لمن الملاحظ أن وزارة الشئون الاجتماعية قد أخذت تنتبه إلى ضرورة مواجهة سائر المشاكل الاجتماعية التى تواجه الشباب ، فليس بدعاً أن ندعو إلى الاهتمام بمشكلة التوجيه المهنى . ولن تستطيع الأسرة المصرية أن تقوم بواجبها فى هذا التوجيه ، إلا إذا بدأت الحكومة بهذا الواجب ، فعملت على أساس علمى صحيح ، واهتمت بإقامة مراكز فنية للتوجيه المهنى فى كل مدينة ، وبلدة . ولسنا ننكر أن إنشاء مثل هذه المراكز ، يقتضى كفايات خاصة قد نكون مفتقرين إليها فى الوقت الحاضر ، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نفكر جدياً فى مشكلة التوجيه المهنى التى يتوقف عليها صالح الفرد والجماعة معاً .

والواقع أن من واجب وزارة الشئون أن تعمل على إنشاء مكاتب أو مراكز حكومية للاستشارة الفنية ، تضم بعضاً من الاخصائيين فى علم النفس ، فضلا عن بعض الأطباء والمعلمين ، ويكون من واجبها أن تدرس حالة كل مراهق يتقدم للاستشارة ، بالاستناد إلى الوثائق الخاصة الواردة من المعاهد التى درس بها ، أو المدارس التى اختلف إليها . وليس القصد من إقامة مثل هذه المراكز ، فرض مهنة خاصة على المراهق ، بل إلزام كل أسرة بالاستشارة ، حتى لا يكون الاتجاه الذى يتخذه المراهق وليد الصدفة أو الاختيار السيىء . وهنا تكون مهمة « المرشد الاجتماعى » أن يقنع الأسرة عن طريق الأدلة والأسانيد ، بضرورة توجيه المراهق توجيهاً خاصاً يتفق مع ميوله واستعداداته . فالمرشد فى مراكز التوجيه المهنى هو « موجه » يستعين بطرقه الخاصة وأساليبه الفنية فى تقديم رأى صائب للأسرة التى تلتجىء إليه ؛ وكلما لمست الأسرة فى رأيه روح الإخلاص وآيات الإقناع ، كان رأيه أقرب إلى الإلزام ، وبالتالى أدنى إلى التحقق .

أما إذا أحسن الآباء فهم التوجيه المهنى ، فهنالك تكون الاستشارة مجدية حقاً ، لأن فى وسع الوالدين أن يمدوا المراكز الاستشارية بالمعلومات القيمة التى

تساعد على حسن توجيه المراهق . وإنه لمن واجب الأسرة أن تتعاون مع المركز الفنى تعاوناً حقيقياً حتى تكون للاستشارة قيمتها . فليس المهم أن يقدم المركز إلى الأسرة مجرد نصيحة ، بل المهم أن تتضافر الأسرة مع مركز التوجيه المهنى ، حتى تكتمل الاستشارة بتعاون الوالدين مع الموجهين . وهنا يكون مثل الموجه مع الوالدين كمثل الطبيب مع المريض ، فإن المريض ملزم بأن يمد الطبيب بالمعلومات اللازمة لتشخيص المرض ومعرفة عوارضه .

ولن يكون للاستشارة أى معنى إذا لم تقترن بالثقة التامة من جانب الأسرة فى الموجه السيكولوجى الذى تتقدم إليه . فليس يكفى أن نجعل الاستشارة إلزامية ، بل ينبغى أيضاً أن تسود الثقة بين الوالدين والموجهين ، حتى لا يكون التوجيه مجرد نصيحة يضرب بها عرض الحائط . وإذن فان من واجب الموجهين فى المراكز الفنية أن يعرفوا بكل صراحة رغبة الوالدين وأملهم فى المراهق ، فضلا عن مواردهم المادية ، وحالتهم الاجتماعية ، والعلاقة بينهم وبين الطفل ، وصلة الطفل بالمدرسة ، ومواهب الطفل الخاصة ، ومظاهر نقصه ، إلى غير ذلك مما تستطيع الأسرة أن تكشف عنه بوضوح للمركز الفنى . — أما إذا لم يكن التفاهم سائداً بين الآباء والمراكز الفنية ، فهنالك يكون إلزام الاستشارة عبثاً لا فائدة منه .

وإنه لمن الضرورى أن يعرف المركز الفنى بكل صراحة حالة الوالدين ، وسن كل منهما ، وعلاقة كل منهما بالطفل ، لأن كل هذا من شأنه أن يؤثر على مركز الطفل . وكذلك ينبغى أن يقف المركز التوجيهى على ميول الأب والأم ، وأسلوب كل منهما فى التربية ، فضلا عن عادات الأسرة فى التسلية ، ومعاملة الناس ، والاطلاع الخارجى ، ومدى توافق الطفل مع إخوته وأخواته ، والأعباء التى اعتاد القيام بها ؛ أعنى « البيئة » التى نشأ بين ظهرانيها . فهذه المعلومات التى تستطيع الأسرة أن تمد بها المركز الفنى ، تعين على فهم حالة الطفل ، وبالتالى تساعد على توجيهه . وكثيراً ما يكون مركز الطفل ضعيفاً ، بسبب بيئة مختلة أو حالة اجتماعية سيئة . فلا بد من أن يعرف الموجه ظروف الطفل ، حتى لا يحكم عليه حكماً خاطئاً ، أو حتى لا يجحفه حقه . وليس من شك فى أن الحالة الاجتماعية أو الأخلاقية للبيت الواحد ، كثيراً ما تكون مسئولة إلى حد كبير عن انخفاض المستوى العام للطفل ، فمن الضرورى إذن أن نحيط علماً بالبيئة التى نشأ فيها الطفل ، حتى نتوخى العدالة فى الحكم على المستقبل الذى يمكن أن ينتظره .

ومهما يكن من شيء فإن فى وسع الأسرة أن تساهم فى توجيه طفلها توجيهاً سليماً ، إذا كانت عوناً للمركز الفنى على فهم الطفل ومعرفة حالته . ولسنا نزعم أن توجيه الطفل رهن بظروف الأسرة أو حالتها الاجتماعية فحسب ، وإنما كل ما نحرص على تأكيده هو أن معرفة البيئة التى نشأ فى وسطها الطفل ، من شأنها أن تساعد على توجيهه . وعلى أية حال ، فإن توجيه المراهق يجب أن يقوم على المراهق نفسه ، بغض النظر عن سائر المشاكل أو العوائق التى قد يصطدم بها . وأما حالة الأسرة المادية ، فإنها قد تكشف لنا عن الصعوبات التى قد تحول دون تحقيق التوجيه المقترح ؛ وهنا يكون من واجب المركز الفنى أن يأخذ بيد المراهق ، حتى يساعده على تحقيق المستقبل الذى اختطه له .

وهكذا نرى أن كل « طفل » هو عبارة عن « حالة » يجب أن تدرس على حدة . فليس يكفى أن نعمد إلى الكشف عن الطفل نفسه ، بل ينبغى أيضاً أن نبحث كل ما أحاط به من ظروف خاصة ساهمت فى تكوينه ، أو ساعدت على نموه ، أو وقفت حائلا دون تقدمه . وليس من شك فى أن من واجبنا أن نستبقى العوامل المساعدة ، ونزيل القوى المناهضة ، ونغير الظروف العائقة ، حتى نمهد للطفل سبيل التقدم ، ونوجهه توجيهاً سليماً صائباً . فكلما ازداد فهمنا للبيئة المنزلية ، وطرق تكيف الطفل معها ، ومدى استجابته للوسط الذى أحاط به ، استطعنا أن نرشده إلى السبيل الذى يتفق مع حالته الخاصة .

وليس الغرض من هذا التوجيه أن نوفر على المراهق جهداً لا بد أن يبذله ، بل الغرض أن نوجه المراهق نحو العمل الذى يتذوقه ، والجهد الذى يستعذبه ، حتى يكون نشاطه مقترناً باللذة والسرور . فكل ما يرمى إليه التوجيه المهنى هو أن يرشد المراهق إلى العمل الذى يلائمه كل الملاءمة . ولا ريب أننا إذا دفعنا المراهق دفعاً إلى مستوى ، هو دونه بكثير ، فإننا نجعل منه كائناً ضعيفاً لا يقوى على شىء ، إذ يشعر هو فى قرارة نفسه بأنه دون ما يعهد إليه ، فيظل دائماً فى مؤخرة الصفوف .

أما مهمة المدرسة فى التوجيه المهنى فإنها تتصل اتصالا مباشراً بالمهمة التربوية التى تضطلع بها المدرسة على وجه العموم . والواقع أن المدرسة هى التى تعد الطفل للحياة العملية ، فهى بالضرورة تساهم بالقسط الأوفر فى توجيه المراهق . وإذا كانت المدرسة هى بمثابة المجتمع الذى يتعلم فيه الطفل روح الجماعة ، فإن من المؤكد أن أساليب التعامل التى يتبعها المراهق نحو أقرانه التلاميذ ، هى بعينها تقريباً تلك التى

سيتبعها من بعد نحو زملائه فى العمل . فمن الواجب أن يتعلم التلميذ فى المدرسة كيف يطيع أستاذه ويحترم أقرانه ، حتى يستطيع من بعد أن يطيع رئيسه ويحترم زملاءه فى العمل الذى سوف يندمج فيه . وإذا كان من الأهمية بمكان أى نقف على مدى توافق الطفل فى المدرسة مع أساتذته وزملائه ، فما ذلك إلا لأن التوجيه المهنى يتوقف إلى حد كبير على مثل هذه المعلومات القيمة . وإذن فإن مهمة المدرسة فى التوجيه المهنى لا تنحصر فى الجهود الخاصة التى تبذل من أجل هذا التوجيه ، وإنما هى تتمثل أيضاً فى « الإعداد » الذى تقوم به حين تعمل على تهذيب الطفل خلقياً واجتماعياً . ولا ريب أن لملاحظات المدرسة وتعليماتها ، أهمية كبرى من بعد ، حينما يجىء دور الحكم على الطفل . فالمدرسة هى التى تعد الطفل للحياة العملية ، وهى التى تضمن له سبيل النجاح فى مستقبل حياته .

بيد أن مساهمة المدرسة فى مهمة التوجيه المهنى لا تنحصر فى الدور التربوى الذى تقوم به المدرسة (بحكم وظيفتها الأصلية) وإنما هى تتمثل أيضاً فى دراستها للطفل وتعرفها لحالته . فالمدرسة ملزمة بأن تضع « دوسيهاً » خاصاً لكل تلميذ ، تضمنه معلومات دقيقة عن حالته العامة ، ومدى تقدمه ، ومستواه العقلى . ومن الواجب أن يطلع على هذا « الدوسيه » كل من يتصدى لتوجيه الطفل ، فى مراكز التوجيه المهنى ، حتى يستطيع أن يدلى بحكم صائب يستند إلى وثائق قاطعة . وإذا كانت المدرسة هى من المراهق بمثابة « الماضى » الذى لا بد من معرفته ، فإن المعلومات التى يمكن أن تمدنا بها المدرسة هى على غاية من الأهمية ، لأنها تكشف لنا عن ماضيه بأكمله . فمن الضرورى إذن أن نعرف كيف كانت حالة المراهق فى دور التحصيل العلمى ، وإلى أى حد كان توافقه مع أساتذته وزملائه ، وما هى مظاهر امتيازه ونواحى نقصه . وهكذا نستطيع أن ننظر إلى ما كان ، أو ما هو كائن ، فنحكم على ما سيكون ، ونبنى للمستقبل على أساس الماضى .

وفضلا عن هذا كله ، فإن المدرسة إذ تعد تلاميذها لما يستقبلهم من الأعمال ، قد تحسن صنعاً إذا هى فتحت أبوابها بين الحين والآخر لجو خارجى جديد ، يتنسمه التلاميذ داخل المدرسة نفسها . وهنا يكون على المدرسة أن تدعو أصحاب الحرف ورجال الأعمال ، لتزويد التلاميذ بالمعلومات اللازمة عن الحرف والمهن المختلفة . وليس من شك فى أن هؤلاء قد يكونون أقدر على التحدث عن أعمالهم ، مما لو تحدث عنها أناس لا يمتون إليها بأدنى صلة . هذا إلى أن التلاميذ كثيراً ما يتأثرون بالمحاضرين

أنفسهم ، فمن الواجب أن يتولى الحديث عن الحرف المختلفة ، أناس عركوا هذه الحرف بأنفسهم ، وفى استطاعتهم أن يكشفوا عن أسرارها التى قد تخفى على غيرهم . فليس على المدرسين أن يشرحوا للتلاميذ مهناً لم يختبرها أحد منهم بنفسه ، وإنما يجب أن يتولى هذه المهمة أصحاب المهنة أنفسهم . ولا ريب أن على هؤلاء تقع أولا وقبل كل شيء مهمة الدعاية لمهنتهم . فمن واجب أصحاب المهن والحرف المختلفة أن يقوموا هم أنفسهم بدعوة المراهقين إلى الإقبال على أعمالهم ، عن طريق المحاضرات الشيقة ، والأحاديث الطلية .

وصفوة القول أن المدرسة تقوم بدور هام فى التوجيه المهنى ، لأنها تنمى فى الطفل روح الجماعة ، وتمده بالأسلحة اللازمة للدخول إلى معركة الحياة ، فضلا عن أنها قد تكشف للمراهق عن حقيقة الأعمال المختلفة التى يمكن أن تسنح له الفرصة للالتحاق بها . وكلما كانت المدرسة وثيقة الصلة بالحياة ، كانت أقدر على المساهمة فى التوجيه المهنى . فالمدوسة هى التى تربط حياة الفرد بالحياة الجمعية ، وهى التى تهيىء للمراهق أن يخرج إلى عالم الحياة العملية مزوداً بالأسلحة اللازمة للكفاح .

وليس من شك فى أن الهدف الأسمى الذى يمكن أن تصبو إليه المدرسة ، إنما هو أن تهيىء للمراهق تكويناً فنياً خاصاً به يضمن له مركزاً فى الجماعة ، وفقاً لاستعداداته وميوله . وليس معنى هذا أن التوجيه المنشود من شأنه أن يضمن لكل مراهق حياة ناعمة لا أثر فيها للعوائق والمشاكل ، بل المقصود أنه يجهز كل شاب بوسائل الكفاح فى معركة الحياة . أما إذا تصورنا أن غاية التوجيه المهنى هى ضمان المستقبل لكل شاب ، عن طريق إعداده لحياة الوظيفة الراتبة ، فقد فهمنا التوجيه على غير حقيقته ، لأن هدفه أبعد ما يكون عن هذا المصير الضعيف الذى يفضى إلى خلق جيل محطم من الشيوخ !

زكريا ابراهيم